بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

٢٢

شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم

كَعْبُ بنُ مَالِكٍ

رضي الله عنه

فَهَذَا جَانِبٌ مِنْ جَوَانِبِ الشِّعْرِ الَّذِي انْصَرَفَ إِلَيْهِ كَعْبٌ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ جَانِباً آخَرَ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَفَضَائِلِ الأَعْمَالِ إِذْ يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا وَهُوَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَرَيْعَانِ شَبَابِهِ فَيَقُولُ:

وَأَغْضُوا عَنِ الفَحْشَاءِ، لاَ تَعْرِضُوا لَهَا
وَلاَ تَطْلُبُوا حَرْبَ العَشِيرَةِ بِالقَلْبِ
وَلاَ تَقْبِضُوا أَعْرَاضَهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
وَلاَ تَلْمِسُوهَا فِي المَجَالِسِ وَالرَّكْبِ

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ لِهَذَا الحَيِّ مَا أَرَادَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالعِزِّ التَقَى حَجِيجُهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي المَوْسِمِ، فَاسْتَمَعُوا لَهُ، وَسَمِعُوا مِنْهُ القُرْآنَ، وَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُوْلَى، وَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى مَدِينَتِهِمْ بَدَؤُوا يَدْعُونَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يُسَمَّى المُقْرِىءَ، فَأَخَذَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَيُسْلِمُ النَّاسُ، فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، وَكَانَ إِسْلاَمُهُ مِنَ الأَرْبَعِينَ

الأَوَائِلِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الإِسْلاَمِ مِنَ الأَنْصَارِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ: كُنْتُ قَائِدَ أَبِي، كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، حِينَ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ بِهِ إِلَى الجُمُعَةِ فَسَمِعَ الأَذَانَ بِهَا صَلَّى عَلَى أَبِي أُمَامَةَ، أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ. قَالَ: فَمَكَثَ حِيناً عَلَى ذَلِكَ لاَ يَسْمَعُ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ. قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا بِي لَعَجْزٌ، أَلاَ أَسْأَلُهُ مَا لَهُ إِذَا سَمِعَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّى عَلَى أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهِ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ كَمَا كُنْتُ أَخْرُجُ، فَلَمَّا سَمِعَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ مَالَكَ إِذَا سَمِعْتَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّيْتَ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بِنَا بِالمَدِينَةِ فِي هَزْمِ النَّبِيتِ، مِنْ حَرَّةِ بنِي بَيَاضَةَ، يُقَالُ لَهُ: نَقِيعُ الخَضِمَاتِ، قَالَ: قُلْتُ: وَكَمْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ.

وَمَا أَنِ اعْتَنَقَ كَعْبٌ الإِسْلاَمَ حَتَّى خَلَعَ عَنْهُ كُلَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ، وَاتَّجَهَ بِكُلِّيَتِهِ نَحْوَ دِينِهِ، وَاجْتَهَدَ ما أَمْكَنَهُ الاجْتِهَادُ فَكَانَ كَأَنَّمَا وُلِدَ مِنْ جَدِيدٍ.

فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُوْلَى وَعَوْدَةِ الأَنْصَارِ إِلَى المَدِينَةِ وَانْتِشَارِ الإِسْلاَمِ هُنَاكَ، وَقُدُومِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ إِلَيْهِمْ، وَنُزُولِهِ عَلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ، وَنَشَاطِهِ فِي الدَّعْوَةِ فَشَا الإِسْلاَمُ فِي دُورِ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا حَانَ المَوْسِمُ رَجَعَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ إِلَى مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الأَنْصَارِ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى المَوْسِمِ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ، فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، حِينَ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَالنَّصْرِ لِنَبِيِّهِ، وَإِعْزَازِ الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلاَلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِمَّنْ شَهِدَ العَقَبَةَ فَيَقُولُ عَنْ ذَلِكَ: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا، فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنَ المَدِينَةِ، قَالَ البَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلاَءِ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْياً، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتُوَافِقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ قُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعْ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، يَعْنِي الكَعْبَةَ، وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. فَقُلْنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَغَنَا

أَنَّ نَبِيَّنَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُصَلِّي إلاَّ إلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ، فقَالَ: إنِّي لَمُصَلٍّ إلَيْهَا، فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ. فَكُنَّا إذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إلى الشَّامِ ، وَصَلَّى إلَى الكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ، وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إلاَّ الإِقَامَةَ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ لِي: يَا ابْنَ أَخِي، انْطَلِقْ بِنَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى نَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إيَّايَ فِيْهِ. فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ، وَلَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِينَا رَجُلاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ فَقُلْنَا: لاَ. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ ـ وَقَدْ كُنَّا نَعْرِفُ العَبَّاسَ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدُمُ عَلَيْنَا تَاجِراً ـ قَالَ: فَإذَا دَخَلْتُمَا المَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الجَالِسُ مَعَ العَبَّاسِ . فَدَخَلْنَا المَسْجِدَ فَإذَا العَبَّاسُ جَالِسٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ مَعَهُ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إلَيْهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْعَبَّاسِ : هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الفَضْلِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، هَذَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُ قَوْمِهِ؛ وَهَذَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ. فَوَاللَّهِ

مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشَّاعِرُ؟ قَالَ: نَعَم. فَقَالَ لَهُ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَقَدْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسلاَمِ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا. فَرَجَعَ البَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ. وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ.

كَمَا حَدَّثَ كَعْبُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهَا، وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرِو بن حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ، سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، أَخَذْنَاهُ مَعَنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِك عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَباً لِلنَارِ غَداً، ثُمَّ دَعَوْنَاهُ لِلإِسْلاَمِ،

وَأَخْبَرْنَاهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِيَّانَا العَقَبَةَ. فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا العَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيباً.

فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَنَحْنُ ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ، أُمُّ عُمَارَةٍ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو بنِ عَدَيٍّ بنِ نَابِي، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلَمَةَ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ.

فَاجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ[1]، إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ. فَلَمَا جَلَسَ كَانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ ـ قَالَ: وَكَانَتِ العَرَبُ إِنَّمَا يُسَمُّونَ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ، خَزْرَجِهَا وَأَوْسِهَا ـ: إِنَّ

---

(١) كان هذا ظاهر العباس، رضي الله عنه، والواقع أنه كان مسلماً وعيناً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أهل مكّة، ولا يعرف هذا أحد، لذا لا يمكن أن يقول إلاّ هذا فلو قال غير ذلك لبطلت المهمة المناطة به.

مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيْهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَهُ قَدْ أَبِى إلاَّ الانْحِيَازَ إلَيْكُمْ، واللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسَلِّمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ، فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ.

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَلاَ القُرْآنَ، وَدَعَا إلَى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإسْلاَمِ، ثُمَّ قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعم، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيَّاً، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رُسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ الحُرُوبِ، وَأَهْلُ الحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَاعْتَرَضَ القَوْلَ، وَالبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإنَّا قَاطِعُوهَا ـ يَعْنِي اليَهُودَ ـ فَهَلْ عَسَيْتَ إنْ نَحْنَ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إلَى

قَوْمِكَ وَتَدَعْنَا؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عشَرَ نَقِيباً، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ وَثَلاثَةً مِنَ الأَوْسِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلنُّقَبَاءِ: أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءَ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي -يَعْنِي المُسْلِمِينَ- قَالُوا: نَعَم.

وَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيُّ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلاً أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ، خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ؛ فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا

بِذَلِكَ؟ قَالَ: الجَنَّةَ. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ.

فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأسِ العَقَبَةِ بِأَنْفَذِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الجَبَاجِبِ[1] هَلَ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَأَةُ مَعَهُ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا أَزَبُّ العَقَبَةِ[2]، هَذَا ابنُ أُزَيْبٍ، أَتَسْمَعُ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، أَمَا وَاللَّهِ لأَفْرَغَنَّ لَكَ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ: إنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَداً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَرَجَعْنَا إِلَى مَضَاجِعِنَا فَنِمْنَا عَلَيْهَا حَتَّى أَصْبَحْنَا.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ

(١) الجباجب: منازل منى.
(٢) أزب: اسم شيطان العقبة.

عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا، أَنْ تَنْشِبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ. فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَاكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ - وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوهْ - وَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ. ثُمَ قَامَ القَوْمُ، وَفِيْهِمْ الحَارِثُ بنُ هِشَامِ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيِّ، وَعَلَيْهِ نَعْلاَنِ لَهُ جَدِيدَانِ. فَقُلْتُ لَهُ كَلِمَةً: يَا أَبَا جَابِرٍ، أَمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَّخِذَ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ؟ فَسَمِعَهَا الحَارِثُ، فَخَلَعَهُمَا مِنْ رِجْلَيْهِ ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا. قَالَ أَبُو جَابِرٍ: مَهْ: أَحْفَظْتَ وَاللَّهِ الفَتَى، فَارْدُدْ إِلَيْهِ نَعْلَيْهِ. قُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَرُدَّهُمَا، فَأْلٌ وَاللَّهِ صَالِحٌ، لَئِنْ صَدَقَ الفَأْلُ لأَسْلِبَنَّهُ.

وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِنَى، فَتَنَطَّسَ[1] القَوْمُ الخَبَرَ، فَوَجَدُوهُ قَدْ كَانَ، وَخَرَجُوا فِي طَلَبِ القَوْمِ، فَأَدْرَكُوا سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ بِأَذَاخِرٍ، وَالْمُنْذِرَ بنَ عَمْرٍو، أَخَابَنِي سَاعِدَةَ بنِ كَعْبِ بنِ الخَزْرَجِ، وَكِلاَهُمَا كَانَ نَقِيباً. فَأَمَّا الْمُنْذِرُ فَأَعْجَزَ القَوْمَ، وَأَمَّا سَعدٌ فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِنَسْعِ رَحْلِهِ ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَكَّةَ يَضْرِبُونَهُ وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمَّتِهِ، وَكَانَ

(١) تنَطّس القوم الخبر: أكثروا البحث عنه.

ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ[1].

وَوَصَلَ الحَاجُّ اليَثْرِبيُّ إِلَى مَدِينَتِهِمْ، وَمَا هِيَ إِلاَّ أَشْهُرٌ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ سَبَقَهُ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَيْهَا.

وَيَفْخَرُ بِبَيْعَةِ العَقَبَةِ، وَيَتَهَدَّدُ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ وَأَبَا سُفْيَانَ، وَيُثْنِي عَلَى نُقَبَاءِ الأَنْصَارِ وَيَذْكُرُ فَضَائِلَهُمْ فَيَقُولُ:

أَبْلِغْ أُبَيًّا[2] أَنَّهُ فَالَ رَأْيُهُ
وَحَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ، وَالحَيْنُ وَاقِعُ
أَبَى اللَّهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ، إِنَّهُ
بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَاءٍ وَسَامِعُ
وَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ[3] أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا
بِأَحْمَدَ نُورٌ مِنْ هُدَى اللَّهِ سَاطِعُ

---

(١) ثم أفلت القوم سعداً بعد أن أجاره بعضهم وهما: جبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس.
أنظر سيرة ابن هشام.

(٢) أبيّ بن خلف الجمحي.

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب الأموي.

فَــلاَ تَرْغَبَــنْ فِي حَشْــدِ أَمْــرٍ تُرِيدُهُ
وَأَلِّــبْ وَجَمِّــعْ كُلَّ مَا أَنْــتَ جَامِعُ

أَبَاهُ البَرَاءُ[1]، وَابْنُ عَمْرٍو[2]، كِلاَهُمَا
وَأَسْعَــدُ[3] يَأْبَــاهُ عَلَيْكَ، وَرَافِعُ[4]

وَسَعْــدُ[5] أَبَــاهُ السَّاعِــدِيُّ، وَمُنْذِرٌ[6]
لأَنْفِــكَ، إِنْ حَاوَلْــتَ ذَلِكَ، جَادِعُ

وَمَــا ابْــنُ رَبِيعٍ[7]، إِنْ تَنَاوَلْــتَ عَهْدَهُ
بِمُسْلِمِــهِ، لاَيَطْمَعَــنْ ثَمَّ طَامِعُ

وَأَيْضَــاً فَلاَ يُعْــطِيكَهُ ابــنُ رَوَاحَةٍ[8]
وَإِخْفَــارُهُ مِنْ دُونِــهِ السُّــمُّ نَاقِعُ

وَفَــاءً بِهِ، وَالْقَوْقَلِــيُّ ابــنُ صَامِتٍ[9]
بِمَنْدُوحَــةٍ عَمَّــا تُحَــاوِلُ يَافِعُ

---

(١) البراء بن معرور.
(٢) أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام
(٣) أسعد بن زرارة.
(٤) رافع بن مالك.
(٥) سعد بن عبادة.
(٦) المنذر بن عمرو.
(٧) سعد بن الربيع.
(٨) عبد الله بن رواحة.
(٩) عبادة بن الصامت.

أَبُـو هَيْثَـمٍ[1] أَيْضَـاً وَفِـيٌّ بِمِثْلِهَا
وَفَـاءً بِمَـا أَعْطَـى مِنَ العَهْـدِ، خَانِعُ

وَمَا ابنُ حُضَيْرٍ[2]، إِنْ أَرَدْتَ بِمَطْمَعٍ
فَهَـلْ أَنْـتَ عَنْ أُحْمُوقَـةِ الغَـيِّ نَازِعُ

وَسَعْدٌ[3]، أَخُو عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، فَإِنَّهُ
ضَـرَوحٌ لِمَـا حَاوَلْـتَ لِلأَمْـرِ مَانِعُ

أُولاَكَ نُجُـومٌ، لاَ يُغِبُّـكَ مِنْهُمُ
عَلَيْكَ بِنَحْسٍ فِي دُجَى اللَّـيْلِ طَالِعُ

وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، يَعْتَـزُّ بِشَهَادَتِـهِ العَقَبَةَ. فَكَانَ يَقُولُ: وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْعَةَ العَقَبَةِ حِيْنَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرُ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْها[4].

---

(١) أبو الهيثم بن التيهان.
(٢) أسيد بن الحضير.
(٣) سعد بن خيثمة.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَنَزَلَ فِي دَارِ أَبِي أَيُّوب خَالِدِ بن زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلازَمَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ يَمْدَحُهُ، وَيَفْخَرُ بِتَصْدِيقِهِ لِلْرسُولِ الكَرِيمِ، وَيَتَهَدَّدُ الكُفَّارَ، وَيَرُدُّ عَلَى شُعَرَائِهِم، وَيَهْجُوهُم.

قَالَ ابنُ سِيرِينَ: كَانَ شُعَرَاءُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بنُ مَالِك. أَمَّا كَعْبُ، فَكَانَ يَذْكُرُ الحَرْبَ، يَقُولُ: فَعَلْنَا وَنَفْعَلُ وَيَتَهَدَّدُ المُشْرِكِينَ. وَأَمَّا حَسَّانُ فَكَانَ يَذْكُرُ عُيُوبَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ، وَأَمَّا ابنُ رَوَاحَةَ، فَكَانَ يُعَيِّرُهُمْ بِالكُفْرِ[١].

عَن ابْنِ المُنكَدِرِ، عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِكَعْبِ بن مَالِكٍ: «وَمَا نَسِيَ رَبُّكَ لَكَ - وَمَا كَانَ رَبُّك نَسِيًّا - بَيْتًا قُلْتَهُ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «أَنْشِدْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ»، فَقَالَ:

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٢٥.

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا
وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ[1]

فَنَرَاهُ مَثَلاً يُنْكِرُ عَلَى قُرَيْشٍ مَعْصِيَتَهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ نُورَ النُّبُوَةِ لَوَاضِحٌ، وَأَنَّهُ يَفْدِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالأَهْلِ وَالمَالِ فَيَقُولُ:

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ، أُفٍّ لِدِينِكُمْ
وَأَمْرِكُمُ السَّيءِ كَانَ غَاوِيَا
فَإِنِّي وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِي، لَقَائِلٌ
فِدَىً لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا
أَطَعْنَاهُ، لَمْ نَعْدِلْهُ بِغَيْرِهِ
شِهَاباً لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا

وَيَتَكَلَّمُ عَنْ صِفَاتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ:

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ
نُورٌ مُضِيءٌ، لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

---

(١) السخينة: طعام من دقيق وسمن، كانت قريش تكثر من أكله فلقبها به. أورده صاحب كنز العمال ونسبه لابن منده، وابن عساكر. (عن سير أعلام النبلاء).

الحَــقُّ مَنْطِقُــهُ، وَالْعَــدْلُ سِيْرَتُهُ
فَمَــنْ يُجِبْــهُ إِلَيْهِ، • يَنْــجُ مِنْ تَبَبِ
نَجِـدُ المُقَـدَّمِ ، مَاضِـي الهَـمِّ، مُعْتَزِمٌ
حِينَ القُلُـوبِ عَلَـى رَجْفٍ مِنَ الرُّعُبِ
يَمْضِــي، وَيَذْمُرُنَــا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ
كَأَنَّـهُ البَـدْرُ، لَمْ يُطْبَـعْ عَلَـى الكَذِبِ
بَــدَا لَنَــا، فَاتَّبَعْنَــاهُ نُصَدِّقُهُ
وَكَذَّبُــوهُ، فَكُنَّــا أَسْعَــدَ العَرَبِ
وَيَقُولُ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْضاً:
فَــإِنْ يَكُ مُوسَــى كَلَّــمَ اللَّــهَ جَهْرَةً
عَلَـى جَبَـلِ الطُّــورِ المُنِيفِ المُعَظَّمِ
فَقَــدْ كَلَّــمَ اللَّــهُ النَّبِــيَّ مُحَمَّداً
عَلَى المَوْضِعِ الأَعْلَى الرَّفِيعِ المُسَوَّمِ
وَإِنْ تَكُ نَمْـلُ البَـرِّ بِالوَهْــمِ كَلَّمَتْ
سُلَيْمَانَ ذَا المُلْكِ الَّـذِي لَيْسَ بِالعَمِي
فَهــذا نَبِــيُّ اللَّــهِ أَحْمَــدُ سَبَّحَتْ
صِغَــارُ الحَصَــى فِي كَفِّــهِ بِالتَّرَنُّمِ

المُؤَاخَاةُ

بَعْدَ أَنْ وَصَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِرَاً آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ لاَ فَرْقَ بَيْنَ مُهَاجِرِهِمْ وَأَنْصَارِيِّهِمْ كَيْ يَكُونُوا كُتَلَةً وَاحِدَةً أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ سَوَاءً أَكَانُوا يَهُودَاً دَاخِلَ المَدِينَةِ أَمْ قُرَيْشَاً فِي مَكَّةَ أَمْ مُشْرِكِي العَرَبِ أَيْنَمَا كَانُوا، وَلَمْ تَكُنْ مُؤَاخَاةً بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ كَمَا فَهِمَ بَعْضُهُمْ - خَطَأً - مِنَ النُّصُوصِ أَوْ كَمَا تَوَهَّمَ بَعْضُهُمْ حَتَّى غَدَا هَذَا شَائِعَاً بَيْنَ النَّاسِ، فَنَجِدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ آخَى بَيْنَهُ - وَهُوَ سَيِّدُ البَشَرِ - وَبَيْنَ ابنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ عَمِّهِ حَمْزَةَ ابنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَبَيْنَ مَوْلاَهُ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ بِلاَلِ بنِ رَبَاحٍ وَعَبْدِ اللَّهِ الخَثْعَمِيِّ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ جَعْفَرَ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ وَجَعْفَرُ غَائِبٌ، وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ: آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَكَعْبِ بنِ مَالِكٍ.

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا ابنُ الزِّنَادِ، عَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ،

عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَبَيْنَ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ. وَيَبْدُو أَنَّ رِوَايَةَ ابْنِ إِسْحَاقَ هِيَ الصَّحِيحَةُ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ.

مَعَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ

لَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلَةً مِنَ الشَّامِ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَقَالَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسُ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً. وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا، فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْراً. غَيْرَ أَنَّهُ فَخَرَ بِنَصرِ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُولُ:

لَعَمْرُ أَبِيكُمَا يَا بَنِي لُؤَيٍّ
عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وَانْتِخَاءِ
لَمَا حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
وَلاَ صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللَّهِ، يَجْلُو
دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا وَالغِطَاءِ

رَسُـولُ اللَّـهِ يَقْدُمُنَـا بِأَمْرٍ
مِـنَ امْـرِ اللَّـهِ أُحْـكِمَ بِالقَضَاءِ
فَمَا ظَفِـرَتْ فَوَارِسُـكُمْ بِبَدْرٍ
وَمَـا رَجَعُـوا إِلَيْكُمْ بِالسَّواءِ
فَـلاَ تَعْجَـلْ أَبَـا سُفْيَانَ، وَارْقُبْ
جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُـعُ مِنْ كَدَاءِ
بِنَصرِ اللَّـهِ رُوحُ القُـدْسِ فِيهَا
وَمِيكَالُ فَيَا طِيبَ المَلاَءِ

غَيْرَ أَنَّ قُرَيْشاً بَدَأَتْ تَسْتَعِدُّ لِنِزالِ المُسْلِمينَ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَامَ شُعَرَاؤُهَا وَمَنْ أَيَّدَهُمْ مِنَ الشُّعَرَاءِ الآخَرِينَ يَتَوَعَّـدُونَ الأَنْصَارَ وَيَتَهدَّدُونَ المُسْلِمينَ، وَكَانَ لاَ بُدَّ لِشُعَـرَاءِ المُسْلِمِـينَ مِنْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِـمْ، وَكَانَ سِلاَحُهُـمْ تَذْكِيرُ قُرَيْشٍ بِمَعْـرَكَةِ بَدْرٍ، وَصَرْعَى رُؤُوسِهِمْ فِي مَيْدَانِهَا، وَأَنَّ عَذَاباً أَشَدُّ يَنْتَظِرُهُمْ، هُوَ عَذَابُ يَوْمِ القِيَامَةِ لِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ، وَلِبَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِـمْ وَمُحَارَبَتِهِمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَنَّ اللَّـهَ بِيَدِهِ مَلَـكُوتُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ النَّصْرَ بِيَدِهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ إِنَّ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً قُوَّةٌ تُحِيطُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَحْمِيهِ، وَنَرَى كَعْبَ بنَ مَالِكٍ مَثَلاً يَقُولُ فِي الرَدِّ عَلَى ضِرَارِ بنِ الخَطَّابِ:

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ قَادِرٌ
عَلَى مَا أَرَادَ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرُ

قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلاَقِيَ مَعْشَراً
بَغَوْا، وَسَبِيلُ البَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ

وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مَنْ يَلِيهِمُ
مِنَ النَّاسِ ، حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِرُ

وَسَارَتْ إِلَيْنَا لاَ تُحَاوِلُ غَيْرَنَا
بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعاً، وَعَامِرُ

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ، وَالأَوْسُ حَوْلَهُ
لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ، وَنَاصِرُ

وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ
يَمْشُونَ فِي المَاذِيِّ[1]، وَالنقْعُ ثَائِرُ

فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ، وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ
لأَصْحَابِهِ، مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ

شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لاَرَبَّ غَيْرُهُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالحَقِّ ظَاهِرُ

وَقَدْ عُرِّبَتْ بِيضٌ خِفَافٌ كَأَنَّهَا
مَقَابِيسُ[2]، يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرُ

(١) الدروع اللينة.
(٢) مقابيس: شعل من النار.

بِهِـنَّ أَبَدْنَـا جَمْعَهُـمْ فَتَبَدَّدُوا
وَكَانَ يُلاَقِـي الحَـيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
فَـكُبَّ أَبُـو جَهْـلٍ صَرِيعَـاً لِوَجْهِهِ
وَعُتْبَـةُ قَدْ غَادَرْنَـهُ، وَهُـوَ عَاثِرُ
وَشَيْبَـةُ وَالتَّيْمِـيُّ غَادَرْنَ فِي الوَغَى
وَمَـا مِنْهُـمْ إِلاَّ بِذِي العَـرْشِ كَافِرُ
فَأَمْسَـوْا وَقُـودَ النَّـارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا
وَكُلٌّ كَفُـورٍ فِي جَهَنَّـمَ صَائِرُ
تَلَظَّـى عَلَيْهِـمْ، وَهِـيَ قَدْ شَبَّ حَمْيُهَا
بِزُبْـرِ الحَـدِيدِ وَالحِجَـارَةِ سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُـولُ اللَّـهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا
فَوَلَّـوْا، وَقَالُـوا: إِنَّمَـا أَنْـتَ سَاحِرُ
لأَمْـرٍ أَرَادَ اللَّـهُ أَنْ يَهْلِـكُوا بِهِ
وَلَيْسَ لأَمْـرٍ حَمَّـهُ اللَّـهُ زَاجِرُ

مع مَعْرَكَةِ أُحُدٍ

لَمَّا تَكَامَلَتْ جُمُوعُ قُرَيْشٍ وَحُشُودُهَا اتَّجَهَتْ نَحْـوَ المَدِينَـةِ، وَعَسْكَرَتْ إِلَى الشَّمَالِ مِنْهَـا قَرِيبَـاً مِنْ جَبَـلِ أُحُـدٍ، وَخَـرَجَ المُسْلِمُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ أَنِ اتَّجَهَ رَأْيُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، في البِدَايَةِ إلىَ التَحَصُّنِ في المَدِينَةِ.

رَتَّبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُقَاتِلِينَ، وَوَزَّعَهُمْ عَلىَ أَمَاكِنِهِمْ، وَابْتَدَأَتِ المَعْرَكَةُ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ، غَيْرَ أَنَّ نَشْوَةَ النَّصرِ قَدْ جَعَلَتْ بَعْضَهُمْ يَتْرُكُونَ مَوَاقِعَهُمْ مُخَالِفِينَ أَوَامِرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَلَّ النِّظَامُ، وَانْقَلَبَ النَّصْرُ إلىَ تَرَاجُعٍ فَقَدَ فِيْهِ المُسْلِمُونَ شُهَدَاءَ كِرَاماً مِنْهُمْ أَسَدُ اللَّهِ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ، وَسَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيرٍ وَغَيْرُهُمْ، وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ شُجَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُسِرَتْ رُبَاعِيتُهُ، وَدَخَلَتْ حَلْقَتَا المَغْفَرِ في وَجْنَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ دَرْساً لِلْمُسْلِمِينَ كَيْ يَتَجَنَّبُوا مُخَالَفَةَ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، وَلِيُمَحِّصَ المُؤْمِنِينَ وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ.

وَشَهِدَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أُحُداً، وَأَبْلَى البَلاَءَ الحَسَنَ، وَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً، حَتَّى جُرِحَ سَبْعَةَ عَشَرَ جُرْحاً، وَقَدْ حُمِلَ مِنَ المَعْرَكَةِ وَهُوَ ضَعِيفٌ يَقُولُ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا انْكَشَفْنَا يَوْمَ أُحُدٍ، كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَبَشَّرْتُ بِهِ المُؤْمِنِينَ حَيّاً سَوِيّاً، وَأَنَا في الشِّعْبِ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، كَعْباً بِلأْمَتِهِ ـ وَكَانَتْ صَفْرَاءَ ـ فَلَبِسَهَا كَعْبٌ، وَقَاتَلَ يَوْمَئِذٍ بِشَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ، حَتَّى ارْتُثَّ، فَجَاءَ بِهِ الزُّبَيْرُ يَقُودُهُ.

فَخُرَ الْمُشْرِكُونَ بِنَتِيجَةِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُذَكِّرُونَهُمْ بِبَدْرٍ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بِهَرَبِهِمْ فِي بِدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بِقَتْلِ سَادَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَتْلِهِمْ حَمَلَةَ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ صُرِعُوا فِي بَدْرٍ وَفِي أُحُدٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فَقَدْ رَثَى الْمُسْلِمُونَ شُهَدَاءَهُمْ فِي أُحُدٍ، وَعَلَى رَأْسِهِم الْحَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَكَانَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَتَوَلَّى هَذَا كُلَّهُ بِشِعْرِهِ فَنَرَاهُ يَقُولُ.

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ
أَهْلَ اللِّوَاءِ، فَفِيمَ يَكْثُرُ الْقِيلُ؟
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ، لَنَا مَدَدٌ،
فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالُ وَجِبْرِيلُ.
إِنْ تَقْتُلُونَا، فَدِينُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا
وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلُ

وَلَقَدْ رَثَى كَعْبٌ شُهَدَاءَ أُحُدٍ عَامَّةً، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ مَا قَالَهُ فِي الحَمْزَةِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِذْ تَأَثَّرَ عَلَى فَقْدِهِ تَأَثُّراً كَبِيراً فَيَقُولُ:

طَرَقَتْ هُمُومُكَ، فَالرُّقَادُ مُسَهَّدُ
وَجَزِعْتَ أَنْ سُلِخَ الشَّبَابُ الأَغْيَدُ
وَلَقَدْ هُدِدْتَ لِفَقْدِ حَمْزَةَ هِدَّةً
ظَلَّتْ بَنَاتُ الجَوْفِ مِنْهَا تَرْعُدُ
وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ
لَرَأَيْتَ رَاسِي صَخْرِهَا يَتَبَدَّدُ
قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّؤْدَدُ
وَالتَّارِكُ القِرْنَ الكَمِيَّ مُجَدَّلاً
يَوْمَ الكَرِيهَةِ، وَالقَنَا يَتَقَصَّدُ
وَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي الحَدِيدِ كَأَنَّهُ
ذُو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَرَاثِنِ، أَرْبَدُ
عَمُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيُّهُ
وَرَدَ الحِمَامَ، فَطَابَ ذَاكَ المَوْرِدُ
وَأَتَى المَنِيَّةَ مُعْلَماً فِي أُسْرَةٍ
نَصَرُوا النَّبِيَّ، وَمِنْهُمُ المُسْتَشْهَدُ

وَيقُولُ أَيْضاً:

بَـكَتْ عَيْنِـي وَحُـقَّ لَهَـا بُكَاهَا
وَمَـا يُغْنِـي البُـكَاءُ وَلاَ العَوِيلُ

عَلَى أَسَدِ الإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا:
أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ؟

أُصِيبَ المُسْلِمُـونَ بِهِ جَمِيعاً
هُنَـاكَ، وَقَـد أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ

أَبَـا يَعْلَى لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ
وَأَنْـتَ المَاجِـدُ البَـرُّ الوَصُولُ

عَلَيْكَ سَلاَمُ رَبِّـكَ فِي جِنَانٍ
مُخَالِطُهَـا نَعِيمٌ لاَ يَـزُولُ

مَعَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ

عَمِلَتْ قُرَيْشٌ عَلَى جَمْعِ الأَعْرَابِ وَتَحْزِيبِ الأَحْزَابِ وَالسَّيْرِ جَمِيعاً نَحْوَ المَدِينَةِ لاقْتِحَامِهَا عَلَى المُسْلِمِينَ، وَاسْتِئْصَالِ شَوْكَتِهِمْ، وَقَدْ تَحَالَفَتْ مَعَ غَطَفَانَ، وَأَسَدٍ، وَفَزَارَةَ، وَبَنِي مُرَّةَ، وَأَشْجَعَ، وَيَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ سِرّاً لِلْعَمَلِ عَلَى القَضَاءِ عَلَى المُسْلِمِينَ. وَسَارَ الأَحْزَابُ وَتَجَمَّعُوا فِي مَجْمَعِ الأَسْيَالِ فِي شَمَالِ المَدِينَةِ إِلَى الغَرْبِ قَلِيلاً، وَاتَّفَقُوا

عَلَى أَنْ يَقُومَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ دَاخِلِ المَدِينَةِ بِنَقْضِ عُهُودِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالغَدْرِ بِالمُسْلِمِينَ. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ.

وَحفَرَ المُسْلِمُونَ الخَنْدَقَ فَعَسْكَرَتِ الأَحْزَابُ إِلَى الشَّمَالِ مِنْهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى الجَنُوبِ مِنْهُ، وَطَالَ الأَمْرُ عَلَى المُشْرِكِينَ حَتَّى تَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهُمْ فَانْسَحَبَ الأَعْرَابَ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ يَرَوْهَا فَاضْطَرُّوا إِثْرَهَا إِلَى الانْسِحَابِ وَالرُّجُوعِ إِلَى مَكَّةَ صَاغِرِينَ، وَتَفَرَّدَ المُسْلِمُونَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانَتْ عُقُوبَتُهُمُ القَتْلُ نَتِيجَةَ خِيَانَتِهِمْ وَغَدْرِهِمْ وَنَقْضِهِمُ العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ. فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ شُعَرَاءِ المُسْلِمِينَ الآخَرِينَ أَمْثَالِ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ وَغَيْرِهِمْ يَرُدُّونَ عَلَى شُعَرَاءِ المُشْرِكِينَ، وَيَفْخَرُونَ بِعَقِيدَتِهِمْ، وَبِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِصَبْرِهِمْ عَلَى القِتَالِ، وَبِنَصْرِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرُجُوعِ الكَافِرِينَ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ.

وَمِمَّا يَقُولُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ:

وَسَائِلَـةٍ تُسَائِـلُ مَا لَقِينَا
وَلَـوْ شَهِـدَتْ أَرَتْنَـا صَابِرِينَا

صَبَرْنَـا لاَ نَرَى لِلَّـهِ عِدْلاً
عَلَـى مَا نَابَنَـا مُتَوَكِّلِينَا

وَكَانَ لَنَـا النَّبِـيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ
بِـهِ نَعْلُـو البَـرِيَّةَ أَجْمَعِينَا

نُقَاتِـلُ مَعْشَـرَاً ظَلَمُـوا وَعَقُّوا
وَكَانُـوا بِالعَـدَاوَةِ مُرْصِدِينَا

لِنَنْصُـرَ أَحْمَـدَاً وَاللَّـهَ حَتَّى
نَـكُونَ عِبَـادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

وَيَعْلَـمُ أَهْـلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا
وَأَحـزابٌ أَتَـوْا مُتَحَزِّبِينَا

بِـأَنَّ اللَّـهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
وَأَنَّ اللَّـهَ مَوْلَـى المُؤْمِنِينَا

كَمَـا قَدْ رَدَّكُمْ فَلاًّ شَرِيدَاً
بِغَيْظِـكُمْ خَزَايَا خَائِبِينَا

بِـرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّـتْ عَلَيْكُـمْ
فَكُنْتُـمْ تَحْتَهَـا مُتَكَمِّهِينَا[1]

(١) متكمهينا: كأنهم عمي لا يبصرون.

وَيَقُولُ يَوْمَذَاكَ:

وَيُعِينُنَا اللَّهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ
مِنْهُ وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ
وَإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا
وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنِقِ (١)
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ
فِينَا مُطَاعُ الأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا
وَيُصِيبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
إِنَّ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّداً
كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ المُتَّقِي

مَعَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ

تَحَصَّنَ اليَهُودُ فِي حُصُونِهِمْ خَوْفاً مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ خَرَجَ مَرْحَبُ اليَهُودِيُّ مِنَ الحِصْنِ، قَدْ جَمَعَ سِلَاحَهُ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ:

---

(١) نعنق: نسرع.

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّــي مَرْحَبُ
شَـاكِي السِّلاَحِ بَطَـلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعَــنُ أَحْيَانَــاً وَحِينَـاً أَضْرِبُ
إِذَا اللُّيُوثُ أَقْبَلَــتْ تُحَرَّبُ
إِنَّ حِمَايَ لِلْحِمَى لاَ يُقْرَبُ

وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَأَجَابَهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ قَائِلاً:

قَــدْ عَلِمَــتْ خَيْبَــرُ أَنِّــي كَعْبُ
مُفَــرِّجُ الغُمَّــى جَرِيْءٌ صُلْبُ
إِذَا شَبَّتِ الحَرْبُ تَلَتْهَـا الحَرْبُ
مَعِــي حُسَــامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ
نَطَــؤُكُمْ حَتَّــى يَزِلَّ الصَّعْبُ
نُعْطِي الجَـزَاءَ أَوْ يَفِـيءَ النَّهْبُ
بِكَفِّ مَاضٍ لَيْسَ فِيْهِ عَتْبُ

كَمَا يُرْوَى شِعْرُهُ هَذَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ.

قَــدْ عَلِمَــتْ خَيْبَــرُ أَنِّــي كَعْبُ
وَأَنَّنِــي مَتَــى تُشَــبُّ الحَرْبُ
مَاضٍ عَلَى الهَوْلِ جَرِيءٌ صُلْبُ
مَعِــي حُسَــامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ

بِــكَفٍّ مَاضٍ لَيْسَ فِيْهِ عَتْبُ
نَدُكُّــكُمْ حَتَّــى يَذِلَّ الصَّعْبُ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لِهَذَا؟ قَالَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّـهِ المَوْتُـورُ الثَّائِرُ، قُتِلَ أَخِي بِالأَمْسِ ، فَقَـالَ: فَقُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُـمَّ أَعِنْـهُ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ.

مَعَ غَزْوَةِ تَبُوكَ

وَشَهِدَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا بَعْدَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَتَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ، وَيَرْوِي هُوَ نَفْسُهُ قِصَّةَ تَخَلُّفِهِ فَيَقُولُ: مَا تَخَلَّفْـتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ قَدْ تَخَلَّفْـتُ عَنْـهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَكَانَـتْ غَزْوَةً لَمْ يُعَاتِبِ اللَّهُ وَلاَ رَسُولُهُ أَحَدَاً تَخَلَّفَ عَنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّمَا خَرَجَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِـدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَـةَ، وَحِينَ تَوَاثَقْنَـا عَلَى الإِسْلاَمِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ هِيَ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْهَا. قَالَ: وَكَانَ مِنْ خَبَرِي

حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْه فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَوَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ لِي رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى اجْتَمَعَتَا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلنَّاسِ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَنْ تَبِعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَثِيرٌ، لاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يَعْنِي بِذَلِكَ الدِّيوَانَ، يَقُولُ: لاَ يَجْمَعُهُمْ دِيوَانٌ مَكْتُوبٌ.

قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّهُ سَيَخْفَى لَهُ ذَلِكَ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَأُحِبَّتِ الظِّلاَلُ، فَالنَّاسُ إِلَيْهَا صُعْرٌ[1]، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَجَهَّزَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ، وَجَعَلْتُ أَغْدُو لِأَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي، أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى

(١) صُعْر: مائلون.

شَمَّرَ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصبَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَادِيَاً، وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئاً، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَينِ، ثُمَّ أَلْحَقُ بِهِمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَرَّطَ[1] الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ، فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ أَفْعَلْ، وَجَعَلْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطُفْتُ فِيهِمْ يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَى إلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصاً[2] عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ. فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا مِنْهُ إلاَّ خَيْراً، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، قَدْ

---

(١) تفرّط: فات أوانه.
(٢) مغموصاً عليه: مطعوناً عليه.

تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَثِّي[1]، فَجَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخْطَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، غَدَاً، وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي؛ فَلَمَّا قِيلَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، قَدْ أَظَلَّ قَادِمَاً زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لاَ أَنْجُو مِنْهُ إلاَّ بِالصِّدْقِ، فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْدُقَهُ، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، المَدِينَةَ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ لَهُ وَيَعْتَذِرُونَ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عَلاَنِيَتَهُمْ وَأَيْمَانَهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى جِئْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَتَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَهْ، فَجِئْتُ أَمْشِي، حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثاً كَذِباً لَتَرضَيَنَّ عَنِّي، وَلَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ،

(١) بثي: حزني.

وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثاً صِدْقاً تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إنِّي لأَرْجُو عُقْبَايَ مِنَ اللَّهِ فِيهِ، وَلاَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقْتَ فِيهِ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وَثَارَ مَعِي رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، لَكَ. فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا أَحَدٌ غَيْرِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَقَالَتِكَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ؛ قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، مِنْ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وَهِلاَلُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ؛ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَصَمَتُّ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي نَفْسِي وَالأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى

ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ وَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ بِالأَسْوَاقِ، وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي، هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَوَثَبْتُ فَتَسَوَّرْتُ الحَائِطَ، ثُمَّ غَدَوْتُ إِلَى السُّوقِ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِالسُّوقِ إِذَا نَبَطِيٌّ يَسْأَلُ عَنِّي مِنْ نَبَطِ الشَّامِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ؟ فَجَعَلَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَنِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكَتَبَ كِتَاباً فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَإِذَا فِيهِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ

يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هُوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكْ». قَالَ: قَلْتُ حِيْنَ قَرَأْتُهَا: وَهَذَا مِنَ البَلاَءِ أَيْضاً، قَدْ بَلَغَ بِيَ مَا وَقَعْتُ فِيْهِ أَنْ طَمِعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ. قَالَ: فَعَمِدْتُ بِهَا إِلَى تَنُّورٍ فَسَجَرْتُهُ بِهَا. فَأَقَمْنَا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. قَالَ: قُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا؟ قَالَ: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لاِمْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ مَا هُوَ قَاضٍ. قَالَ: وَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلاَلَ بنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَائِعٌ لاَ خَادِمَ لَهُ، أَفَتَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ، قَالَتْ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، وَلَقَدْ تَخَوَّفْتُ عَلَى بَصَرِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ لاِمْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لاِمْرَأَةِ هِلاَلِ بنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ؛ قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُهُ فِيهَا، مَا أَدْرِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، لِي فِي ذَلِكَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. قَالَ: فَلَبِثْنَا

بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا. ثُمَّ صَلَّيْتُ الصُّبْحَ، صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْنَا الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَقَدْ كُنْتُ ابْتَنَيْتُ خَيْمَةً فِي ظَهْرِ سَلْعٍ، فَكُنْتُ أَكُونُ فِيهَا، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى ظَهْرِ سَلْعٍ، يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجُ.

قَالَ: وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الفَجْرَ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ نَحْوَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً، وَسَعَى سَاعٍ مِنَ أَسْلَمَ، حَتَّى أَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِشَارَةً، وَاللَّهِ لاَ أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَتَيَمَّمُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَتَلَقَّانِي النَّاسُ يُبَشِّرُونَنِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنَكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَحَيَّانِي وَهَنَّأَنِي،

وَوَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ: فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، قَالَ لِي، وَوَجْهُهُ يَبْرُقُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، إِذا اسْتَبْشَرَ كَانَ وَجْهُهُ قِطْعَةَ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ. قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ مِنْ تَوْبَتِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي، صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي مُمْسِكٌ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي إِلَى اللَّهِ أَلاَّ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقاً مَا حَيِيتُ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ذَلِكَ أَفْضَلَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ مِنْ كَذِبَةٍ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ نِعْمَةً قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ كَانَتْ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يَوْمَئِذٍ، أَنْ لاَ أَكُونُ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فِي الَّذِينَ كَذَبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ قَال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ. فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة ١١٧ ـ ١١٩.
(٢) سورة التوبة ٩٤ ـ ٩٦.

قَالَ: وَكُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَعَذَرَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أَمْرَنَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيْهِ مَا قَضَى، فَبِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾.

وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ تَخْلِيفِنَا لِتَخَلُّفِنَا عَنِ الغَزْوَةِ، وَلَكِنْ لِتَخْلِيفِهِ إِيَّانَا وَإِرْجَائِهِ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1].

لَقَدْ أَخْطَأَ كَعْبٌ فِي تَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَنَدِمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَاخْتُبِرَ فَصَبَرَ، وَجُرِّبَ فَصَدَقَ، وَابْتُلِيَ بِإِغْرَاءَاتِ الرُّومِ، فَاسْتَعْلَى بِإِيمَانِهِ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا تَحْتَ أَقْدَامِهِ، وَأَحْرَقَ إِغْرَاءَاتِهِمْ فِي التَّنُّورِ، وَصَبَرَ عَلَى مَا اخْتُبِرَ بِهِ فَاسْتَحَقَّ تَوْبَةَ اللَّهِ وَغُفْرَانَهُ.

بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَجَزِعَ الصَّحَابَةُ جَزَعاً شَدِيداً حَتَّى طَاشَتْ أَحْلاَمُ بَعْضِهِمْ مِنْ هَوْلِ وَقْعِ هَذَا

(١) سيرة ابن هشام.

الحَادِثِ الأَلِيمِ عَلَيْهِمْ وَصُعُوبَتِهِ عَلَى وَاقِعِهِمْ، فَرَثَاهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ فِي عَدَدٍ مِنَ القَصَائِدِ مِنْهَا:

يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى
لِخَيْرِ البَرِيَّةِ وَالمُصْطَفَى
وَبَكِّي الرَّسُولَ وَحُقَّ البُكَا
عَلَيْهِ لَدَى الحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا
عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ
وَأَتْقَى البَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى
عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ
وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللُّهَا
لَهُ حَسَبٌ فَوْقَ كُلِّ الأَنَا
مِ مِنْ هَاشِمٍ ذَلِكَ المُرْتَجَى
نَخُصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ
وَكَانَ سِرَاجاً لَنَا فِي الدُّجَى
وَكَانَ بَشِيراً لَنَا مُنْذِراً
وَنُوراً لَنَا ضَوْءُهُ قَدْ أَضَا
فَأَنْقَذَنَا اللَّهُ فِي نُورِهِ
وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَا

ويَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى:

وَبَـاكِيَةٍ حَرَّاءَ تَحْـزَنُ بِالبُكَا
وَتَلْطِـمُ مِنْهَـا خَدَّهَـا وَالمُقَلَّدَا
عَلَـى هَالِكٍ بَعْـدَ النَّبِـيِّ مُحَمَّدٍ
وَلَـوْ عَلِمَـتْ لَمْ تَبْـكِ إلاَّ مُحَمَّدَا
فُجِعْنَـا بِخَيْرِ النَّـاسِ حَيّاً وَمَيِّتاً
وَأَدْنَـاهُ مِنْ رَبِّ البَـرِيَّةِ مَقْعَدَا
وَأَفْظَعِهُـمْ فَقْـداً عَلَـى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَأَعَظَمِهُـمْ فِي النَّـاسِ كُلِّهِـمْ يَدَا
لَقَـدْ وَرِثَـتْ أَخْـلاَقُهُ المَجْـدَ وَالتُّقَى
فَلَـمْ تَلْقَـهُ إلاَّ رَشِيداً وَمُرْشِدَا

كَمَا يَقُولُ:

أَلاَ انْـعَ النَّبِـيَّ إلَـى العَالَمِينَا
جَمِيعَـاً، وَلاَ سِيَمَـا المُسْلِمِينَا
أَلاَ انْـعَ النَّبِـيَّ لأَصْحَابِهِ
وَأَصْحَـابِ أَصْحَابِـهِ التَّابِعِينَا
أَلاَ انْـعَ النَّبِـيَّ إلَـى مَنْ هَدَى
إلَـى الجِـنِّ لَيْلَـةَ إذْ يَسْمَعُونَا

لِفَقْــدِ النَّبِــيِّ إمَــامِ الهُدَى
وَفَقْــدِ المَلاَئِــكَةِ المُنْزَلِينَا

وَعَاشَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا، كَأَيَّامِـهِ السَّابِقَـةَ يَتَفَاعَـلُ مَعَ كُلِّ حَادِثَـةٍ تَمُـرُّ بِالمُجْتَمَعِ المُسْلِمِ، وَعِنْدَمَا قُتِلَ عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، تَأَلَّمَ أَلَماً شَدِيداً لِمَا حَلَّ بِالخَلِيفَةِ، وَلِمَا أَصَابَ المُجْتَمَعَ مِنْ تَغَيُّرٍ، وَإِذَا غَدَا المُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ خَلِيفَتَهُمْ أَوْ يَسْكُتُونَ عَنْ مَصْرَعِهِ أَمَامَهُمْ فَتِلْكَ دَاهِيَةٌ مَا بَعْدَهَا مِنْ دَاهِيَةٍ فَرَثَا الخَلِيفَـةَ وَعَبَّرَ عَمَّا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ بِشِعْرِهِ فَيَقُولُ:

يَا لِلرِّجَــالِ لأَمْــرٍ هَاجَ لِي حَزَنَا
لَقَدْ عَجِبْـتُ لِمَـنْ يَبْـكِي عَلَـى الدِّمَنِ
إِنِّــي رَأَيْتُ قَتِيلَ الــدَّارِ مُضْطَهَداً
عُثْمَانُ يُهْدَى إِلَى الأَجْـدَاثِ فِي كَفَنِ
يَا قَاتَــلَ اللَّــهُ قَوْمَــاً كَانَ أَمْرُهُمْ
قَتْـلَ الإِمَــامِ الــزَّكِيِّ الــطَّيِّبِ الرَّدِنِ
مَــا قَاتَلُــوهُ عَلَــى ذَنْــبٍ أَلَــمَّ بِهِ
إِلاَّ الَّــذِي نَطَقُــوا زُوراً، وَلَــمْ يَكُنِ

قَـدْ قَتَلُـوهُ، وَأَصْحَـابَ النَّبِـيِّ مَعاً
لَـوْلاَ الَّـذِي فَعَلُـوا لَمْ نُبْـلَ بالفِتَنِ
قَـدْ قَتَلُـوهْ نَقِيَّاً غَيْرَ ذِي عَيْبِ
صَلَّـى الإلَـهُ عَلَـى وَجْـهٍ لَهُ، حَسَنِ
قَـدْ جَمَّـعَ الحِلْـمَ، وَالتَّقْوَى، لِمَعْصَمَةٍ
مَـعَ الخِلاَفَـةِ أَمْـراً كَانَ لَمْ يَشِنِ
هَـذَا بِهِ، كَانَ رَأْيَاً فِي قَرَابَتِهِ
لَمْ يَحْـظَ شَيْئَـاً مِنَ الـدُّنْيَا، وَلَـمْ يَخُنِ

وَتَتَكَرَّرُ قَصَائِدُهُ فِي رِثَائِهِ لِلْخَلِيفَةِ الشَّهِيدِ، وَرُبَّمَا كَانَ كُلَّمَا تَذَكَّرَ هَوْلَ الحَادِثِ وَخَطَرَهُ عَلَى المُجْتَمَعِ تَحَرَّكَتْ مَشَاعِرُهُ بِالشِّعْرِ يُصَوِّرُ مَا أَلَمَّ بِهِ، وَيُحذِّرُ مِنَ اسْتِمْرَارِ الفِتْنَةِ، وَيَعْتَبُ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَنْصُرُوا إمَامَهُمْ.

وَكَانَتِ السِّـنُّ قَدْ تَقَدَّمَـتْ بِكَعْبٍ فَزَادَتْ عَلَـى السِّـتِّينَ، فَاعْتَزَلَ مَا أَصَابَ الأُمَّةَ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ. وَاسْتُشْهِدَ عَلِـيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَزَادَتِ الحَسْرَةُ. وَتَنَازَلَ الحَسَنُ لِمُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَاسْتَقَرَّ الْوَضْعُ، غَيْرَ أَنَّ كَعْباً قَدْ فَقَدَ بَصَرَهُ، وَأَصْبَحَ يَقُودُهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّـهِ، وَأَحْيَانَـاً ابْنُـهُ عَبْدُ الرَّحْمَـنِ. فَكَانَ يَرْوِي لَهُمَا مَا جَرَى مَعَهُ.

وتُوفِّيَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ عَامَ خَمْسِينَ مَعَ خِلاَفٍ فِي الرِّوَايَةِ، وَقَدْ تَجَاوَزَ السَّابِعَةَ وَالسَّبْعِينَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: كَانَ كَعْبٌ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ[1].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الشُّعَرَاءِ، مَا أَنْزَلَ. قَالَ: «إِنَّ المُجَاهِدَ، مُجَاهِدٌ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ»[2].

رَوَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَدَداً مِنَ الأحَادِيثِ تَبْلُغُ الثَّلاَثِينَ اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى ثَلاَثَةٍ مِنْهَا، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيثٍ، وَمُسْلِمٌ بِحَدِيثَيْنِ.

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.